

6

تحويل القبلة

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



تحويل القبلة

قالَ (تعالَى) :

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾

[البقرة : ١٤٤]

كانَ الرَّسولُ ﷺ هو وأَصْحابُهُ يصلُّونَ فى الْبيْتِ الْحرامِ ويَتَّجهُونَ إلى الْكعْبَةِ الْمُشرَّفَةِ عنْدَمَا كانُوا بمكَّةَ .

وبعْدَ أنْ هاجَروا إلى الْمدينةِ الْمنَوَّرةِ أَمرهُمُ اللَّهُ (تَعالَى) أنْ يتَّجهوا إلى بيْت

الْمَقْدِسِ فى صَلاتِهِم بدلاً مِن الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ .

وامْتَثَلَ الْمُسْلِمونَ جَميعًا لأَمْرِ اللَّه (تعالَى) ، لأَنَّهُمْ يعلمونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ، ولم يتخَلَّفْ واحدٌ مِنْهُمْ عَنِ الاستجابَةِ لأَمْرِ اللَّه .

وكانَ الْيَهودُ كلَّما مَرُّوا عَلَيْهِمْ وهُمْ يُصَلُّونَ يتعجَّبونَ فى أَنْفُسِهِمْ ويَقُولونَ :

- لماذا يصلِّى مُحَمَّدٌ وأَصْحابُهُ إلى بيْتِ الْمَقْدِسِ قِبْلَةِ بَنِى إِسْرائيلَ ، أَلَمْ يَزْعُمْ بأَنَّهُ يُخالِفُنا ؟

وقالَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ :

- كَيْفَ لِمُحَمَّدٍ وأَصْحابِه أَنْ يتحوَّلُوا عَنِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ قِبْلَةِ الأَجْدادِ والآباءِ ويَتَّجِه إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؟

ووجد المنافقون الفرصة مناسبة لكى يطعنوا فى الإسلام فقالوا :

ـ لو كان محمد نبيا حقا ما اتخذ أكثر من قبلة ، ولصلى إلى قبلة واحدة ، ولكنه بذلك يؤكد أنه ليس نبيا كما زعم .

وكثرت الأقاويل والافتراءات على الرسول ﷺ وعلى الإسلام وعلم الرسول ﷺ بذلك فحزن فى نفسه حزنا شديدا ، وأغضبه أن هذه المزاعم وتلك الافتراءات تجد آذانا صاغية من المنافقين والمشركين .

وكان الرسول ﷺ فى قرارة نفسه يهفو إلى البيت الحرام ، ويتمنى من أعماقه أن يكون البيت الحرام هو القبلة التى يتجه إليها فى صلاته ، لكنه ﷺ كان يعلم أن الله (تعالى)

لَمْ يأْمُرْهُ بالتَّوجُّهِ إلى بيْتِ المَقْدسِ إلاَّ لحكْمَةٍ يعلَمُها ، ولذلك فقَدْ أَخْفَى رغْبَتَه في نفْسِه ، وترك الأُمورَ تسيرُ كما يُقدِّرُها اللَّهُ (تعالَى) ..

ما بين غمضة عينٍ وانتباهتِها

يُغيِّرُ اللَّهُ من حالٍ إلى حالِ ..

ولَمْ يستطعِ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يُغالِبَ أَشْواقَهُ وحنينَه لبيْتِ اللَّهِ الحرامِ ، فقال لجبريل عليه السلام حينَ نزَل عليْه بالْوحْي :

ـ « وَدِدْتُ أَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ وجْهِي عَنْ قِبْلَةِ الْيهودِ » .

ولَمْ يزِدْ جبريلُ أَمينُ الوحْيِ على أَنْ قال :

ـ « إِنَّما أَنَا عَبْدٌ ، فادْعُ ربَّكَ واسْأَلْهُ » .

ولَمْ يُصرِّحِ الرَّسولُ ﷺ بالدُّعاءِ تأَدُّبًا مع اللَّهِ ،

ولكنَّهُ ظلَّ يرفعُ وجهَهُ للسماءِ عَقِبَ كلِّ صلاةٍ ، انتظارًا لنزولِ الوحيِ ، عسى أنْ يستجيبَ اللَّهُ له ويريحَ نفسَهُ .

ولمْ يَطُلِ انتظارُ الرسولِ ﷺ كثيرًا ، فبعدَ ستةَ عشرَ شهرًا اتَّجهَ فيها إلى بيتِ المقدسِ ، نزلَ الوحيُ من السماءِ يأمرُهُ بالتَّوجُّهِ إلى البيتِ الحرامِ ، فارتاحتْ نفسُهُ ﷺ واطمأنَّ قلبُهُ .

قالَ (تعالى) :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ ﴾

[البقرة : ١٤٤]

كانتْ سعادةُ الرسولِ ﷺ والمسلمينَ لا توصفُ ، فقدْ آنَ الأوانُ لكي يعودوا إلى قبلتِهم وقبلةِ الأنبياءِ والمرسلينَ .

وَحَملَ الْخَبَرَ السَّعِيدَ بعضُ الْمُسْلمينَ وانْطَلَقُوا لكى يُخْبِرُوا به إِخْوانَهُمْ فَوَجَدُوا بعْضَهُمْ يصلِّى ، فتردَّدُوا وقالُوا فى أَنْفُسِهِمْ :

ـ هلْ نخْبرُهُمْ فى أَثْناءِ الصَّلاةِ أَوْ ننتظِرُ حتَّى ينتهُوا منْها ؟

وأَخيرًا تجاوزُوا تردُّدَهُمْ وقَرَّرُوا أَنْ يُخْبِرُوا إِخوانَهُمْ بأَمرِ تحويلِ الْقبْلَةِ وهُمْ فى الصَّلاةِ حتَّى يُسْرِعُوا بالاستجابَةِ لأَمْرِ اللَّه (تعالى) .

وفى الْحالِ تحوَّلَ الْمُسْلمونَ إِلى الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ ، والدُّموعُ تسيلُ علَى وجُوهِهمْ ولَمْ يستطيعُوا أَنْ يعبِّرُوا عنْ شُكْرِهِمْ للَّه إِلاَّ بإِطالَةِ السُّجُودِ والرُّكُوعِ والْبُكاءِ بيْنَ يديْه (سُبْحانَهُ وتعالَى) .

ومَرَّ الْيهودُ بهمْ فرأَوْهمْ جهةَ الْبيْتِ الْحرامِ ،

فامْتلأَت قُلوبُهم غلاً وحقْدًا ، وفقدُوا صوابهم وصاروا يقولونَ كلامًا هوَ أقْربَ إلى الْهَذَيانِ والْجُنونِ وكأنَّهم يعانُونَ سكراتِ الْمَوْتِ .

قالَ أحَدُهمْ فى غيْظٍ :

- انْظُرُوا ، لقدْ عادَ الْمُسلمونَ مرَّةً أُخْرَى إلى قِبْلَةِ الْكُفَّارِ والْمُشْرِكينَ .

ولَمْ يهْدَأ الْيهودُ ، فأَخذُوا يُحرِّضُونَ ضدَّ الإسْلامِ والْمُسْلمينَ ويحارِبُونَ الرَّسولَ ﷺ بكُلِّ وسيلَةٍ .

وبدَأَ الْيهودُ حرْبهمْ ضدَّ الإسْلامِ بمُحاوَلَةِ تَشْكيكِ الْمُسْلمينَ أنْفُسِهمْ فى دينِهمْ ، فما كانَ منَ الْمُسْلمينَ إلاَّ أنْ تَصدَّوْا لهُمْ بحزْمٍ وقالوا فى يقينٍ :

- إنَّنا نؤْمنُ بكُلِّ ما يدْعونا إليه رسولُ اللَّهُ ﷺ ،

آمنا به كُلٌّ من عنْد ربِّنا .

وفشلت محاولاتُ الْيهود الْمُستميتةُ فى زعْزعة إيمان الْمُسْلمين وتشْكيكهم فى دينهم وعقيدتهم ، حيْث وجدوهم أصْلب من الصخْر ، فاتَّجهوا إلى الْكُفَّار والْمُشركين فقالوا لهمْ :

ـ لقدْ عاد مُحمدٌ مرَّةً أخْرى إلى قبْلتكُمْ وقبْلة آبائكُمْ ، ولوْ كان على الْحقِّ ـ كما يزعم ـ وأنْتم على الْباطل ، لما عاد إلى قبْلتكُمْ مرَّةً أُخْرى .

ووافق كلامُ الْيهود هوًى فى نُفوس الْكُفَّار والْمُشركين فقالوا فى زهْو :

ـ إنَّ محمدًا يوشكُ أنْ يعودَ إلى ديننا كما عاد إلى قبْلتنا .

وَلَمْ يَقِفِ الْيَهُودُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ ذَهَبُوا إِلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَشَحَنُوهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ عَثَرُوا عَلَى مَقْتَلٍ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَقَالُوا :

ـ إِنَّ صَلاَةَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَتْ خَطَأً ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ تَدَارَكَهُ وَاتَّجَهَ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ ، إِذَنْ فَمَا مَصِيرُ تِلْكَ الصَّلَوَاتِ الَّتِي صَلاَّهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ جِهَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَمَا مَصِيرُ مَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُوَ يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؟

وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فَانْطَلَقُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا :

ـ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تُوُفِّيَ إِخْوَانُنَا وَهُمْ

يُصلّون إلى القبلة الأولى ، وقد صرفك اللّه (تعالى) إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ؟

وعندئذ نزل قوله (تعالى) :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[البقرة : ١٤٣]

وهنا اطمأنّ المسلمون على مصير إخوانهم وعلموا أنّ ما يشيعه اليهود والمنافقون ليس له أى نصيب من الصحّة ، فاللّه سبحانه و (تعالى) لن يضيع إيمان هؤلاء ولا صلاتهم السابقة ، بل يقبلها منهم ويجزيهم عليها إن شاء اللّه (تعالى) .

ووجد اليهود أنفسهم وقد خاب مسعاهم أمام هذا الواقع الأليم ، فشعروا بالمرارة والأنين ، بعد أن أصبح المسلمون فى كلّ

مكانٍ وفي كُلِّ زمانٍ يتجهون إلى بيتٍ واحدٍ هو بيتُ اللهِ الحرامِ .

وازدادت مرارةُ اليهود بعد أن أنزل اللهُ (تعالى) آيات كريمة تردُّ عليهم وعلى مزاعمهم في القرآن الكريم ، وتصفهم بأنهم سفهاء لا يقدرون ما يقولون ولا يعرفون قيمة الكلمة .

قال (تعالى) :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[البقرة : ١٤٢]

ثم أوضح اللهُ الحكمةَ من تغيير القبلة وتحويلها من مكانٍ إلى مكانٍ آخر . فقد أراد اللهُ (تعالى) أن يختبر المسلم الصادق ،

الذى يمتثل لما يأمره اللّه (تعالى) به ، وينفذ كل أوامر اللّه وتعليماته .

كما أراد اللّه (تعالى) أن يكشف النفاق والمنافقين ، حيث يعيش هؤلاء مذبذبين ليس لهم موقف معروف وواضح ، ولكنهم يتظاهرون بالإيمان تارة ، إذا كانت لهم مصلحة من ذلك ، ويسيرون وراء الأقاويل والشائعات كلما لاحت لهم الفرصة لكى يعبروا عن حقيقة حقدهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين .

وقد كان درس تحويل القبلة مفيدا وناجحا ، حيث ميز اللّه بين المؤمن والمنافق كما كشف زيف اليهود والمشركين ومن والاهم .

قال (تعالى) :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ
عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ
وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[البقرة : ١٤٣]

وإذا كانت أحداث هذه القصة قد وقعت في عهد الرسول ﷺ ، فإن العبرة منها باقية وصالحة لكي نأخذ منها الدرس في كل زمان .

وأول هذه الدروس هو أن يطيع الإنســان ربه طاعة تامة ، فعندما يأمرنا الله بأمر أو يكلفنا بتكليف لا يجب أن نقـول : ومـا الحكمة من هذا الأمر ولماذا فرض الله علينا ذلك ؟ لأن الله (تعالى) هو الذى خلقنا وهو

أَعْلَمُ بنا وبما يصْلحُ لَنا .

قالَ (تعالى) :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾

[الأحزاب : ٣٦]

كذلكَ تلفتُ الآيَةُ الْكَريمةُ أَنْظارنَا إِلى أَنَّ الْيهودَ قديمًا وحَديثًا يقفون خلْفَ الشَّائعات والافْترَاءَات ضدَّ الإِسْلامِ ، وهي افْتراءاتٌ واهيَةٌ يُريدُون بهَا مُحَارَبَةَ الإِسْلامِ والْمُسْلمِينَ ، والذى يَدفعهمْ لذلكَ حقدهم الدَّفينُ على الإِسْلامِ ورسُولِ الإِسْلامِ .

وقديمًا قالوا ما قالوا وحَاولوا اغْتيَالَ الرَّسُولِ ﷺ حتَّى أَجْلاهُمْ من الْمَدِينَةِ الْمُنوَّرَةِ وطردهُمْ شَرَّ طردَةٍ ، والْيوْمَ

يواصلون مؤامراتهم وافتراءاتهم ضد الإسلام والمسلمين ، ويكفى أن ننظر إلى ما يقولونه عن النبى ﷺ وما يفعلونه بالعرب والمسلمين فى فلسطين المحتلة .

وتلفت الآية أنظارنا إلى بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى ، الذى يحتله اليهود ويعيثون فيه فسادا ويخططون لهدمه لكى يبنوا على أنقاضه هيكل داود ، نسأل الله أن يخذلهم وينصر الحق والعدل ، وأن يكون لنا لا علينا إنه نعم المولى ونعم النصير .

رقم الإيداع : ١٧٥٧٧
الترقيم الدولى : ٧ ـ ٣٦٢ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧